المجلس الأول:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيجب على طلاب العلم أن يتعلموا الأدب قبل أن يطلبوا العلم.

والأدب: هو الأخذ بمكارم الأخلاق.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الأدب: أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانهما بمثل قلة الادب. ذكره رحمه الله تعالى في مدارج السالكين.

ولقد مدح الله عز وجل نبينا محمداً ﷺ قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، أي: على أدب عظيم.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (كان خلقه القرآن).

وقال سفيان ابن عيينة رحمه الله تعالى: إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، فعليه تعرض الأشياء، على خُلُقِهِ وسِيرَته وهديه ﷺ، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشقُّ عليه الذي يشق عليكم، وهذا من رحمه، وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: حريص على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

قال الحسين ابن الفضل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي ﷺ.

وفي هذه الليلة بتوفيق الله جل في علاه وإعانته، سنشرع في قراءة رسالة من رسائل الأدب لإمام عالم، وهو الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله تعالى، وهذه الرسالة سماها رحمه الله تعالى حلية طالب العلم، وقد ألف أهل العلم رحمهم الله تعالى في الأدب الكثير من الكتب، منها الموسع ومنها المختصر ومنها المتوسط أو نحو ذلك، وكانت رسالة هذا الإمام بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله تعالى هي عصارة أو زبده ما كتب أهل العلم، وقد وفق فيها، وأعانه الله جل في علاه عليها، وقد يسر الله لهذه الرسالة من الشروحات الكثيرة لأهل العلم، وكان من هذه الشروحات شرح الإمام العالم الشيخ محمد ابن صالح ابن عثيمين رحمه الله تعالى، وقد تم الاختيار بتوفيق الله جل في علاه لشرح هذه الرسالة شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى فنستفيد من الشيخ بكر رحمه الله تعالى، ونستفيد من الشرح الذي هو لفضيلة الشيخ محمد ابن صالح العثيمين رحمه الله تعالى، نقرأ المتن ونقرأ الشرح، وما جلسنا في هذه المجالس إلا لنتعلم العلم، ونتذاكر هذا العلم، ونسأل الله جل في علاه أن يرزقنا الإخلاص لوجهه الكريم والاتباع للنبي ﷺ.

قال رحمه الله تعالى في مقدمة الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المؤلف معالي الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله تعالى: الحمد لله وبعد فأقيّد معالم هذه الحلية المباركة عام ١٤٠٨هـ والمسلمون ولله الحمد يعايشون يقظةً علمية تتهلل لها سبحات الوجوه ولا تزال تُنَشِّطُ متقدمةً إلى الترقي

والنضوج في أفئدة شباب الأمة مجدها ودمها المجددَ لحياتها إذ نرى الكتائب الشبابية تترى يتقلبون في أعطاف العلم مثقلين بحمله يعُلُّون منه وينهلون فلديهم من الطموح والجامعية والاطلاع المدهش والغوص على مكنوناتِ المسائل ما يفرح به المسلمون نصرا فسبحان من يحيي ويميتُ قلوبا، لكن، لابد لهذه النواة المباركة من الصقل والتعهد في مساراتها كافة نشرا للضمانات التي تكف عنها العثار والتعثر في مثاني الطلب والعمل من تموجاتٍ فكرية وعقدية، وسلوكيةٍ وطائفيةٍ وحزبية.

ابتدأ المصنف رحمه الله تعالى رسالته بالبسملة وذلك كما في كتاب الله، وفي سنة النبي ﷺ، وقوله: رحمه الله تعالى: (يعلون منه وينهلون)، يعني كالذي يشرب حتى يرتوي ويأكل حتى يشبع، وقوله: (فلديهم من الطموح والجامعية) الطموح: أي: في الترقي، والجامعية: أي: في جمع العلوم، وقال: (فسبحان من يحيي ويميت قلوبا)، فالحياة الحقيقية هي حياة القلب، ثم قال رحمه الله: (من تموجات فكرية وعقدية وسلوكية وطائفية وحزبية)، فكل كتاب يؤلفه أو يكتبه هذا الإمام رحمه الله تعالى، فهو يعالج فيه قضية من القضايا.

قال الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى: ما ذكره المؤلف صحيح، يعني الشيء الذي ذكره المؤلف صحيح، فإنه في الآونة الأخيرة حصل ولله الحمد من الشباب طموحات واسعة في شتى المجالات، ثم استدرك الشيخ وقال: لكنها تحتاج كما قال، إلى ضمانات وكوابح، تضمن بقاء هذه النهضة وهذا الطموح، لأن كل شيء إذا زاد عن حده، فسوف يرجع إلى جذره إذا لم يضبط ويكبح، فيكون دمارا في المجتمع، وعلى قلب صاحبه.

ثم مثل الشيخ بن عثيمين رحمه الله تعالى قال: أرأيتم الخوارج؟ عندهم من الإيمان بمحبة أن يكون المسلمون على الحق ما لا يوجد في غيرهم، لكن هذا قد زاد حتى كفروا المسلمين، وأئمة المسلمين، وخرجوا عليهم، فصاروا كما قال النبي ﷺ: (يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية)، وهذا مثال من الشيخ واضح، وهو من أدل الأمثلة، على أنه يلزم الشاب المسلم، أي الطموح المحب لإدراك الحق مع حرصه ومحبته، أن يستقيم على الطريقة المثلى، والاستقامة على الطريقة المثلى بإتباع السنة، وأن يكون هذا الإتباع على فهم السلف الصالح.

ثم قال رحمه الله تعالى: فاضبط قلبك إذا رأيت أنه سوف ينفر بعيداً، ويسلك مسلكاً صعباً، فعليك أن ترده، وأن تعرف أن المقصود إقامة دين الله، لا الانتصار للغيرة وثورة النفس، عندنا قوة دافعة وقوة ضابطة، فالإيمان قد يدفعك، لكن العلم الشرعي يضبطك، يجعلك تأخذ بالنصوص، قال رحمه الله: ومعلوم أنه إذا كان هذا المقصود – أعني الانتصار لدين الله – فإن الإنسان سوف يسلك أقرب الطرق إلى حصول هذا المقصود، ولو بالمهادنة إذا دعت الحاجة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ثم قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

وقد جعلتُ طوع أيديهم رسالة في التَّعَالُم، تكشف المندسين بينهم خشية أن يُرْدُوهُم، ويضيعوا عليهم أمرهم، ويبعثروا مسيرتهم في الطلبُ فيَستلوهم وهم لا يشعرون.

واليوم أخوك يشُّد عضدك، ويأخذ بيدك، فأجعل طوع بنانك رسالةً تحمل الصفة الكاشفة لحليتك، فها أنا ذا أجعل سِنَّ القلم على القرطاس، فاتلُ ما أرقُمُ لك أنْعَمَ الله بكَ عينا.

قال الشيخ بن عثيمين رحمه الله تعالى:

يشير المؤلف رحمه الله تعالى إلى أنه ألف هذا الكتاب «حلية طالب العلم» بعد كتاب «التعالم»، هناك كتاب للشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى، نفيس سماه رحمه الله تعالى «بالتعالم»، وقال هنا رحمه الله تعالى، فها أنا إذا أجعل سن القلم على القرطاس، أي مسنونا جاهزا للكتابة، يقول فتل ما أرقم لك، أي اتبع ما أكتب لك، أنعم الله بك عينا، معنى هذا، أي أسعد العيون بملاقاتك.

قال المؤلف في الحاشية: «الصفة الكاشفة» هذه من مصطلحات كتب المواد للسان العرب، وليس المراد «بلسان العرب» الكتاب المعروف، المراد «بلسان العرب» أي: لغة العرب، ومنه ما في مادة (ظبأ) من القاموس، هذا الكتاب الذي «من القاموس» لأحمد بن فارس، يعطيك أصل الكلمة واشتقاق الكلمة، قال الزبيدي، الزبيدي من أهل اللغة ومن أهل الحديث، قال في «تاج العروس» الظبأة هي الضبع (العرجاء) صفة كاشفة. اهـ.

وهذا الوجه من الصفة هو الذي يراد به تمييز الموصوف الذي لا يعلم، ليميز من سائر الأجناس بما يكشفه، يعني تعطيه صفة تكشفه عن غيره، ثم قال: انظر حرف الصاد من الكليات.

ثم قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

لقد تواردت موجبات الشرع على أن التحلي بمحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، والهدي الحسن والسمت الصالح: سمة أهل الإسلام، وأن العلم – هو أثمن درة في تاج الشرع المطهر – لا يصل إليه إلا المتحلي بآدابه، المتخلي عن أفاته، ولهذا عناها العلماء بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إما على وجه العموم لكافة العلوم، أو على وجه الخصوص، كآدب حملة القرآن الكريم،...

قال قبل ذلك الشيخ بن عثيمين رحمه الله تعالى: «اليوم أخوك يشد عضدك، ويأخذ بيدك، فأجعل طوع»، يعني طوع بنانك، رسالة تحمل الصفة الكاشفة، يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فيها التفات من الغَيْبَةِ إلى الحضور، وهذا ليس معتاداً عند العلماء في مؤلفاتهم العلمية، فالشيخ يعتمد على البلاغات اللغوية كما نبهنا في المقدمة، ومعلوم أن الانتفال في الأسلوب من غيبةٍ إلى خطاب، أو من خطاب إلى غيبة، أو من مفرد إلى جمعٍ حيث صح الجمع، من المعلوم أن هذا سوف يوجب الانتباه، يعني يجعل السامع ينتبه، لماذا؟ لأن الإنسان إذا كان يتكلم بأسلوب معين مستمرًّا عليه انسابت نفسه، لكن إذا تغير الأسلوب فسوف يتوقف المستمع وينتبه.

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، فقال: ﴿أَخَذَ اللَّهُ﴾، هذا غَيْبَةٌ، أما قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾، فهذا حضورٌ.

ثم قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

وأن العلم: هو أثمن درة في تاج الشرع المطهر، الشرع كله ثمين، لكن هنا أتى بأفعل التفضيل، قال: (هو أثمن) أي العلم، أثمن درة في تاج الشرع المطهر، لا يصل إليه إلا المتحلي بآدابه، المتخلي عن آفاته.

قال الشيخ بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قوله: «المتحلي...، المتخلي...»، فيهما جناسٌ ناقصٌ، لاختلاف بعض الحروف.

وهذا من المحسنات البديعية، يعني الجناس التام، والجناس الناقص، يقول أهل الفن: الجناس الذي يكون الاختلاف بين لفظيه في عدد الحروف مثلا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾، فزادت كلمة المساق على كلمة الساق بالحروف، أو مثل قوله: «اعترفَ، واغترفَ» بين هاتين الكلمتين، ويرجع له في محله.

ثم قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

وآداب المحدِّث، وآداب المفتي، وآداب القاضي، وآداب المحتسب، وهكذا...

والشأن هنا في الآداب العامة لمن يسلك طريق التعلم الشرعي.

وقد كان العلماء السابقون يلقنون الطلاب في حلق العلم آداب الطلب، وأدركت خبر آخر العقد في ذلك في بعض حلقات العلم في المسجد النبوي الشريف، إذ كان بعض المدرسين فيه يدرس طلابه كتاب "الزرنوجي" المتوفى سنة ٥٩٣هـ رحمه الله تعالى المسمى "تعليم المتعلم طريق التعلُّم". فعسى أن يصل أهل العلم هذا الحبل الوثيق الهادي لأقوم طريق، فيدرج تدريس هذه المادةِ في فواتح دروس المساجد، وفي مواد الدراسة النظامية، وأرجو أن يكون هذا التقييد فاتحة خيرٍ في التنبيه على إحياء هذه المادة التي تهذب الطالب، وتسلك به الجادة في آداب الطلب وحمل العلم، وأدبه مع نفسه، ومع مدرسه، ودرسه، وزميله، وكتابه، وثمرةِ علمه، وهكذا في مراحل حياته.

فإليك حلية تحوي مجموعة آداب، نواقضها مجموعة آفات، فإذا فات أدبٌ منها، اقترف المفرط آفةً من آفاته، فمُقلٌّ ومستكثرٌ، وكما أن هذه الآداب درجات صاعدةٌ إلى السنة فالوجوب، فنواقضها دركات هابطة إلى الكراهةِ فالتحريم.

الشيخ رحمه الله تعالى ذكر كتاباً، قال: المسمى "تعليم المتعلم طريق التعلُّم"، لأن من تعلم الطريق وصل، فالعلم والأدب له طريق، من سار عليه، ومن سلكه وصل، وقوله رحمه الله تعالى: «على إحياء هذه المادة التي تهذب الطالب»، لأن الطالب قد يغتر، وقد يعجب بنفسه، وقد يستهين، وقد يحصل له نحو ذلك.

وقوله: «وهكذا في مراحل حياته»، يعني: هذا الكتاب يعلمك كيفية التقدم والتأخر.

ثم قال: «فمقل ومستكثر»، لأن البعض يطبق الآداب، والبعض الآخر لا يطبق، يقلل أو يكون مستقل من هذه الآداب.

قال الشيخ بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قوله: «لمن يسلك طريق التعلم الشرعي» يشمل أيضاً من يسلك طريق التعليم والآداب، وللمعلم والمتعلم آداب يجب أن يعتنى بها.

ثم قال الشيخ بن عثيمين رحمه الله تعالى:

قال: «نواقضها» يعني ضدها، ومعناه: أنه إذا ذكرت الآداب فيكون ضدها الآفات، عندنا آداب، وعندنا آفات، فإن كانت هذه الآداب مسنونة، يعني ليست واجبة، فيكون ضدها مكروها، وإن كانت واجبة، هذه الآداب، لأن الآداب منها ما يكون مسنونا، ومنها ما يكون واجبا، ليست على درجة واحدة، قال: وإن كانت واجبة فيكون ضدها محرما، ولكن هذا ليس على إطلاقه، يقول الشيخ بن عثيمين رحمه الله تعالى هذا القول الذي ذكره الشيخ هنا ليس على إطلاقه، لماذا؟ قال: لأنه ليس ترك كل مسنون يكون مكروها، قد يترك مسنونا، ولا يكون هذا الفعل مما يسمى مكروها لأجل تركه هذا المسنون، وإلا لقلنا إن كل من لم يأتي بالمسنونات في الصلاة يكون قد فعل مكروه، لأنك قد تترك مسنونات وأنت في صلاتك، هل

وقعت في مكروهات؟ لم تقع في مكروهات، لكن إذا ترك طالب العلم آدابا من الآداب الواجبة، فإنه يكون فاعلا محرما في نفس ذلك الأدب فقط، لأنه ترك فيه واجبا.

وكذلك إذا كان الأدب مسنونا وتركه فينظر، يعني ينظر إلى هذا المسنون الذي ترك، إذا تضمن، يعني هذا المسنون، تركه إساءة أدب مع المعلم، أو مع زملائه فهذا يكون مكروها، يعني لما ترتب عليه، لا لأنه تركه، لا لأنه ترك المسنون بحد ذاته، ولكن لأنه لزم منه إساءة الأدب، يعني تعدى إلى إساءة الأدب.

ثم قال: والحاصل أنه لا يستقيم أن يقال على سبيل الإطلاق: يعني يحتاج إلى تفصيل، كل من ترك مسنونا فقد وقع في مكروه، يعني لا نجعله قاعدة مضطردة، أن كل من ترك مسنون نقول وقعت في مكروه، أو كل من ترك واجبا فقد وقع في محرم، بل يقيد هذا.

وقول الشيخ بكر أبو زيد هنا رحمه الله تعالى: «ويدل عليه عموم الشرع» لأنه قال هنا: «ومنها ما يشمل عموم الخلق من كل مكلف، ومنها ما يختص به طالب العلم، ومنها ما يدرك بضرورة الشرع، ومنها ما يعرف بالطبع، ويدل عليه عموم الشرع».

ما هي موارد هذه الآداب؟

بعضها يؤخذ من النصوص، وبعضها تؤخذ من محاسن الآداب.

ثم قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

ومنها ما يشمل عموم الخلق من كلِّ مكلَّف، ومنها ما يختصُّ به طالب العلم، ومنها ما يدركُ بضرورة الشرع، ومنها ما يعرف بالطبع، ويدل عليه عموم، الشرع من الحمل على محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ولم أعن الاستيفاء، لكنَّ سياقتها تجري على ضرب سبيل المثال، قاصدًا الدلالة على المهمات، فإذا وافَقَت نفسًا صالحةً لها، تناولت هذا القليل فكثرته، وهذا المجمل ففصلته، ومن أخذ بها انتفع ونفع، وهي بدورها مأخوذة من أدب من بارك الله في علمهم، وصاروا أئمةً يهتدى بهم، جمعنا الله بهم في جنته آمين.

المؤلف رحمه الله تعالى أراد أن يبين أن هذه الرسالة مأخوذة كما ذكرت لكم، هي زبدة وعصارة، كلام أهل العلم.

قال المؤلف في الحاشية من هذه الكتب: التي هي في الآداب «الجامع» للخطيب البغدادي رحمه الله، و«الفقيه والمتفقه» له كذلك للخطيب البغدادي، و«تعليم المتعلم طريقة تعليم» للزرنوجي، و«آداب الطلب» للشوكاني، و«أخلاق العلماء» للأجري، و«آداب المتعلمين» لسحنون، و«الرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين» للقابسي، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، و«الحث على طلب العلم» للعسكري، و«فضل علم السلف على الخلف» لابن رجب، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر، و«العلم وفضله وطلبه» للأمين الحاج، و«فضل العلم» لمحمد أرسلان، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم، و«شرح الإحياء» للزبيدي، و«جواهر العقدين»، للسمهودي، و«آداب العلماء والمتعلمين» للحسين بن منصور – منتخب من الذي قبله–، و«قانون التأويل» لابن العربي، و«العزلة» للخطابي، و«من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان، و«منهاج العلماء» لفاروق السامرائي، و«التعليم والإرشاد» لبدر الدين الحلبي، و«الذخيرة» للقرافي، الجزء الأول، و«الأول من المجموع»

للنووي، كتاب المجموع للنووي. ذكر في مقدمته ذلك، و«شحذ الهمم إلى العلم» لمحمد بن ابراهيم الشيباني، و«رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين، و«آثار محمد البشير الإبراهيمي» وغيرها كثير، أجزل الله الأجر للجميع آمين. هذه كتب كلها تتعلق بالآداب ذكرها رحمه الله تعالى.

الفصل الأول: آداب الطالب في نفسه:

١- العلمُ عبادة:

أصل الأصولِ في هذه «الحلية»، بل ولكل أمر مطلوبٍ: علمكَ بأن العلم عبادة، قال بعض العلماء: «العلمُ صلاةُ السر وعبادة القلب».

قال الشيخ بن عثيمين رحمه الله تعالى:

العلم عبادة بلا شك، بل هو من أجل العبادات وأفضلها، حتى إن الله تعالى جعله في كتابه قسيماً للجهاد في سبيل الله فقال جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، يعني بذلك الطائفة القاعدة، ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، وقال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، والفقه هو: العلم بالشرع، فيدخل فيه علم العقائد والتوحيد وغير ذلك، قال الفضيل في تفسير قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، قال: أخلصه وأصوبه، قال: العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، لا يقبل الله العمل حتى يكون خالص لوجهه صواباً على سنة النبي ﷺ، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة، وعن سهل التستري، قال: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا، يعني أن تكون حركاته وسكونه في سره وعلانيته لله وحده لا شريك له، لا يمازجه شيء، لا نفس ولا هوى، ولا دنيا.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

فإذا رأيت أن الله من عليك بهذا فاستبشر خيراً، بأن الله تعالى أراد بك خيراً، وقال الإمام أحمد «العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته، لأن الأصل هو النية، قالوا: وكيف تصح النية؟ يسأل الإمام أحمد كيف تصح النية يا أبا عبد الله؟ قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره.

يعني ينوي أن يرفع الجهل أولا عن نفسه، ثم عن غيره، وإذا طيب القلب للعلم ظهرت بركته، ونما كالأرض، إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا. وفي الحديث: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كل، ألا وهي القلب» هذا الحديث يعتبر أصلا في صلاح القلوب، وقال سهل رحمه الله تعالى: «وحرام على قلب أن يدخله النور، وفيه شيء مما يكره الله عز وجل»، نفهم من ذلك أن صلاح القلوب متقدم على صلاح الظاهر، فمن أراد طلب العلم، ومن أراد أن يستلذ بعبادة الله، وأن يعان من الله جل في علاه، فليبدأ بإصلاح قلبه.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

وعليه فإن شرط العبادة:

١- إخلاص النية لله – سبحانه وتعالى – لقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ...﴾، الآية.

وفي الحديث الفرد المشهور عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ: قال: «إنما الأعمال بالنيات...» الحديث.

فإن فقد العلم إخلاص النية، انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات، ولا شيء يحطمُ العلم مثل الرياء، رياء الشرك، أو رياء إخلاص، ومثل التسميع، بأن يقول مسمعًا: علمتُ وحفظت...

وعليه، فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب، كحب الظهور والتفوق على الأقران وجعله سلمًا لأغراضٍ وأعراض، من جاهٍ أو مالٍ، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمدة، أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية أفسدتها، وذهبت بركة العلم، ولهذا يتعين عليك أن تحمي نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى بل وتحمي الحمى.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

١– إذا قال قائل: بما يكون الإخلاص في طلب العلم؟

قلنا: الإخلاص في طلب العلم يكون بأن تنوي أموراً:

الأمر الأول: امتثال أمر الله، لأن الله تعالى أمر بذلك، فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الآية. وحث – سبحانه وتعالى – على العلم، والحث على الشيء يستلزم، يعني بدلالة اللزوم، محبته والرضا به والأمر به.

الأمر الثاني: حفظ شريعة الله، يعني ينوي هذه النوايا، إذا طلب العلم، يمتثل أمر الله وهذه تكون في قلب هذه النية، ويحفظ شريعة الله، لأن حفظ شريعة الله يكون بالتعلم والحفظ في الصدور، ويكون بالكتابة.

العلم يجمع بين التعلم، وبين الحفظ، وبين الكتابة.

الأمر الثالث: ينوي حماية الشريعة والدفاع عنها، أي الذب عنها، لأنه لولا العلماء ما حميت الشريعة، ولا دافع عنها أحد، ولهذا نجد مثلا شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم الذين تصدوا لأهل البدع، وبينوا بطلان بدعهم، نرى أنهم حصلوا على خير كثير.

وهذا لا شك أنه من صيانة الشريعة.

قاعدة: الرد على المخالف يعتبر أصل من أصول الدين.

الأمر الرابع: اتباع شريعة محمد ﷺ، لأنك لا يمكن أن تتبع شريعته حتى تعلم هذه الشريعة.

كيف تعرف السنة، وأنت لم تتعلم ما هي السنة؟

فهذه أمور أربعة، كلها يتضمنها قولنا: إنه يجب الإخلاص لله في طلب العلم.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

«ولهذا يتعين عليك أن تحمي نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحمى».

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

ما قاله المصنف من وجوب حماية النية من هذه المقاصد السيئة صحيح، فالشيطان حريص أن يفسد أعمالك، وأن يصدك عن هذا الطريق، لأنه يعلم أنك ستحصل على خير عظيم، فيحمي النية من هذه المقاصد السيئة، ويدل ذلك قوله – عليه

الصلاة والسلام – «من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلم إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»، يعني لم يجد ريح الجنة يوم القيامة، نسأل الله العافية.

ثم إن هذه المحمدة والجاه، والتعظيم، وانصراف وجوه الناس إليك ستجده إذا حصلت العلم مع سلامة نيتك، ستحمد إن فسدت النية أو صلحت النية، ستجد المحمدة، لكن إن فسدت النية لن تجد خير، قد تعجل لك في الدنيا، لكن إذا صلحت هذه النية، ستفلح في الدارين، في الدنيا والأخرة، وسينفع الله سبحانه وتعالى بعلمك، ولو كان قليلا سيبارك فيه الله جل في علا، بل إذا كانت نيتك سليمة كنت أقرب لحصول هذا لك.

وقوله: «تحمي الحمى»، أي: تحمي النية، وتحمي ما حولها، وحمى الشيء ما حوله، كما في الحديث: «ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه».

فإن قال قائل ما الفرق بين حب الظهور وحب نفع الناس؟

فالجواب: إن حب الظهور لا يريد منه إلا أن يظهر أمام الناس.

يعني لا يريد ما عند الله، ولا يريد في الحقيقة أن ينتفع بهذا العلم، أو أن ينفع بهذا العلم، يريد ما عند الناس، أي من المدح والثناء.

قال: أما إذا أحب نفع الناس، ثم أتى من بعد ذلك حبه الظهور، لأن النية الصحيحة موجودة، ومن يحب الظهور يطمح أن يظهر ويشار إليه بالأصابع، وتثني عليه الألسنة وما أشبه ذلك، أما من أراد النفع فلا يهمه، أن حضر لمجلسه واحد، أو لم يحضر أحد، أو نحو ذلك، إن أثني عليه، قال: الحمد لله، وإن لم يثنى عليه، أو سمع بأحد خرج ويعلم العلم في مكان آخر يفرح، ولو فاقه في العلم، يفرح ويحمد الله جل في علاه، هذه النية الصادقة، هذه النية الصحيحة. هذا الذي يريد ما عند الله جل جلا في علاه، يقول الشيخ: ومن يحب الظهور يطمح أن يظهر ويشار إليه بالأصابع، وتثني عليه الألسنة، وما أشبه ذلك، أما من أراد النفع فلا يهمه سواء ظهر عند الناس أو لم يظهر.

الأمر عنده سواء، ظهر الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، لم يظهر الحمد لله الذي وفقني للعلم الشرعي، ووفقني للشيء الذي يحبه جل في علاه ويرضى.

قال الشيخ:

وهل الأمران متلازمان؟

يعني حب الظهور، وإرادة نفع الناس، هل الأمران متلازمان؟

نقول: ليسا متلازمين، لكن من أحسن النية حصل له تعظيم الناس له، وتصديرهم إياه، قرت به العيون، لأن عينه قرت لله جل في علا، واعتبار قوله وما أشبه ذلك إذا كانت النية سليمة، ففرق بين من يريد النتائج الحاصلة من مظاهر الدنيا، وبين من يريد الآخرة ثم تأتي هذه النتائج الحاصلة من مظاهر الدنيا.

قال أبو يوسف رحمه الله تعالى: «يا قوم أريد بعلمكم الله تعالى، فإني لم أجلس مجلساً أنوي فيه أن أتواضع، إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح، والعلم عبادة من العبادات، وقربة من القرب».

ثم قال الشيخ:

لكن لو قال قائل: هل يدخل فيما ذكرتم المنافسة في العلم؟

فالجواب: المنافسة غير هذا، فالمنافسة هي: أن يحب أن يسبق لا ليكون فوق صاحبه فيكون أعلى منه، بل يحب أن يتفوق عليهم للعلم، فالفرق دقيق بين من يقول: «أنا أريد أن أطلب العلم لأكون فوق الناس، وأفوق أقراني فقط»، وبين من يحب أن يتفوق عليهم في العلم للعلم، فبينهما فرق واضح، وإلا فهذا عمر – رضي الله عنه – تمنى أن ابنه عبد الله، أجاب النبي ﷺ عندما سأل الصحابة – رضوان الله عليهم – في قوله – عليه الصلاة والسلام –: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ماهي» قال: فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – فوقع في نفسي أنها النخلة، ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله قال: «هي النخلة»، فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا».

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

وللعلماءِ في هذا أقوالٌ ومواقفُ، بينتُ طرفًا منها في المبحث الأول من كتاب «التعالم»، ويزادُ عليه نهي العلماء عن «الطبوليات» وهي المسائل التي يرادُ بها الشهرة.

وقد قيل: «زلةُ العالمِ مضروبٌ لها الطبل».

وعن سفيان – رحمه الله تعالى – أنه قال: «كنتُ أوتيتُ فهم القرآن فلمَّا قبِلتُ الصُّرَّةَ سُلبتُه...»

قال: وللعلماء في هذا أقوال ومواقف بينت طرفاً منها في المبحث الأول من كتاب «التعالم»، هذا كتاب مهم للشيخ رحمه الله.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

الطبوليات: هي المسائل التي يراد بها الشهرة، سميت طبوليات، لأنها مثل الطبل، لها صوت ورنين، فإذا جاء في مسألة غريبة على الناس، واشتهرت عنه صارت كأنها صوت الطبل، ولم أسمع بهذا، ولكن وجهها واضح.

يعني ذكرها هنا واضح، والمعنى واضح، وقرينتها في الإثم والشر «الطبوليات» الأغلوطات، الأغلوطات قرينة الطبوليات، قال الخطابي – رحمه الله تعالى – والأغلوطات جمع أغلوطة، وأنها أفعولة من الغلط، كالأحموقة من الحمق، وهي المسألة التي يعيا بها المسؤول، فيغلط فيها، إذا هي المسائل التي يغالط بها العلماء ليزل المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها، فتهيج بذلك شر وفتنة.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

وقد قيل: «زلة العالم مضروب لها الطبل».

لا يفرح بزلة العالم إلا المنافق مريض القلب، أو متعالم جاهل، والعصمة ماتت بموته – عليه الصلاة والسلام –، ودفنت بدفنه، فهذا منهج أهل السنة والجماعة، فالعالم واجب عليه أن يحذر من مزالق الزلل وأسبابها، والطالب يحذر من نشر تلك الزلات والفرح بها، وقد شبه العلماء زلة العالم بكسر السفينة، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير، والمراد بزلة العالم، ليس مجرد الخطأ، الزلة الكبيرة التي يترتب عليها ما يترتب، يترتب عليها شيء كثير.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

وعن سفيان – رحمه الله تعالى – والمراد والله أعلم سفيان ابن عيينة وليس سفيان الثوري، أنه قال: «كنتُ أوتيتُ فهم القرآن فلمَّا قبِلتُ الصُّرَّةَ سُلبتُه...»

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

الصُّرَّةَ: يعني العطاء من السلطان، لما قبله سلب فهم القرآن، وهؤلاء هم الذين يدركون الأمور، ولهذا كان السلف يتحرزون من عطايا السلطان، ويقولون: إنهم لا يعطوننا إلا ليشتروا ديننا بدنياهم، فلذلك لا يقبلونها.

ثم إن السلاطين فيما سبق قد تكون أموالهم مأخوذة من غير حلها، فيتورعون عنها لهذا السبب أيضاً.

ومن المعلوم أنه لا يجوز للعالم أن يقبل هدية السلطان، بشرط إذا كان السلطان يريد أن تكون هذه العطية مطية له يركبها متى شاء لهذا العالم، يعني يحتاج في بعض الأمور التي تكون على إرادته، ليوافقه في أقواله وأفعاله، أما إذا كانت أموال السلطان نزيهة، ولم يكن يقبل الهدية منه ليبيع دينه بها، فقد قال النبي ﷺ لعمر: «ما جاءك من هذا المال، وأنت غير مشرفٍ ولا سائلٍ فخده، وما لا فلا تتبعه نفسك».

وغرض سفيان – رحمه الله تعالى – التحذير من هذا، وتبكيت نفسه على ما صنع.

يعني يعاتب هذه النفس على ما صنع، ولهذا وردت عن سفيان رحمه الله تعالى على زهده وورعه وتقلله من الدنيا، الحث على: التمول، واصطناع المال، والعمل، والتجارة، والتكسب، وذلك صيانة للنفس من الحرام، ومن الإستزلال أيضا إلى التساهل إلى الفتيا.

ويقول سفيان: «كان المال فيما مضى يكره، وأما اليوم فهو ترس المؤمن».

وقال: «من كان في يده شيء من هذا (يعني: المال) فليصلحه، فإنه زمان إن احتاج، كان أول ما يبذله دينه». نظر رجل إليه إلى سفيان، فقال: يا أبا عبد الله، تمسك هذه الدنانير؟ قال اسكت، فلولا هذه الدنانير لتَمَنْدَلَ بنا هؤلاء. (يعني: لتمسح بنا بناء هؤلاء).

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

فاستمسك – رحمك الله تعالى – بالعروة الوثقى العاصمة من هذه الشوائب، بأن تكون – مع بذل الجهد في الإخلاص – شديد الخوف من نواقضه، عظيم الافتقار والالتجاء إليه سبحانه.

ويؤثر عن سفيان بن سعيد الثوري – رحمه الله تعالى – قوله: «ما عالجت شيئا أشد عليَّ من نيتي».

وعن عمر بن ذر أنه قال لوالده: يا أبي! مالك إذا وعظت الناس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون؟ فقال: يا بني: ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة، وفقك الله لرشدك، آمين.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

وفي معنى ذلك – لا أدري هل هو قول آخر – أو نقل بالمعنى؟ – قول بعض السلف: «ما عالجت نفسي على شيء أشد من معالجتها على الإخلاص».

لأن النية شرود، والقلب يتقلب، وهذا بمعنى كلام سفيان، لأن الإخلاص شديد، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قيل يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعة يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه».

وذلك لأن الإخلاص فيه معالجة النفس، من أغراض الدنيا وشهواتها، فالمخلص يعالج نفسه من أغراض الدنيا وشهواتها، وقد سأل الفضل ابن زياد الإمام أحمد، فقال: كيف النية؟ قال أحمد: «يعالج نفسه إذا أراد عملاً لا يريد به الناس»، يعني يراجع نفسه إذا أراد أن يعمل عملاً من الأعمال لا يريد به الناس.

قال جعفر ابن حيان – رحمه الله تعالى –: «ملاك هذه الأعمال النيات، فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله». النية الصادقة، والنية الصالحة، والنية الطيبة، الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

وعن عمر بن ذر أنه قال لوالده: يا أبي! مالك إذا وعظت الناس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون؟ فقال: يا بني: ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة، وفقك الله لرشدك، آمين.

قال: في حلية الأولياء لابن نعيم، وعن عمر ابن ذر أنه قال لوالده...، هناك قال لأبيه عمر ابن ذر.. يراجع هنا، وفي الحلية قال: ذر لأبيه عمر ابن ذر؟.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

الله أكبر، هذا مثل عظيم، فالنائحة الثكلى هي التي فقدت ولدها، فهي تبكي من القلب، لأنها متأثرة، وأما النائحة المستأجرة فلا يؤثر نوحها ولا بكأها، لأنها تصطنع البكاء، لأنها تبكي من أجل المال، وهذا كان قديما يأتون بالنائحة يستأجرونها فلا تؤثر، لأنها تصطنع.

فالمقصود أن الذي يعمل مع الله جل في علاه ويصدق في نيته، الله سبحانه وتعالى يستعمله وينفع به، وكلامه يخرج من القلب، فينفذ إلى القلب، وأما الذي لا يعمل، وليس المعنى أنه لا يعظ، حتى لو كان مقصرا، لكن المعنى هنا الذي يعمل الله سبحانه وتعالى يجعل الأثر في كلامه.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

وليس مثل هذا الكلام الذي يرد عن السلف، لعل الشيخ بن عثيمين يقصد زمن السلف، وإلا عمر بن ذر، هذا ذر ابن زرارة الهمداني، وصف بالأرجاء، وهجره سعيد بن جبير، وكذلك إبراهيم النخعي، رجل كان عابد، ومن المحدثين يروى عنه الحديث، لكنه كان ينسب إلى الإرجاء، وكذلك ابنه عمر، كما ذكر ذلك في سير إعلام النبلاء.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

وليس مثل هذا الكلام الذي يرد عن السلف يقصد به مدح أنفسهم، السلف إذا قالوا هذا الكلام لا يقصدون به مدح أنفسهم، الغالب أن السلف الصالح لا يتكلمون بمثل هذا الكلام، هذا غالب حالهم، إلا إذا أرادوا التحدث عن نعمة أو نحو ذلك، لأن هذا يشعر بتزكية نفسه، وليس كل إنسان يستطيع أن يتكلم بهذا الكلام، بل يجب أن نحسن الظن بهم، إذا تكلم السلف الكبار كسفيان الثوري ومالك وأحمد ونحوهم، إذا تكلموا نحسن الظن بهم، وأنهم لا يريدون بذلك مدح

أنفسهم، وإنما يريدون بذلك حث الناس على إخلاص النية، والبعد عن الرياء، وما أشبه ذلك، وإلا لكان هذا تزكية للنفس واضحةً، والله عز وجل يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ لكن السلف رحمهم الله تعالى لعلمنا بمقامهم وإخلاصهم يجب أن نحمل ما ورد عنهم في هذا الصدد على المعنى الصحيح. أنهم لا يريدون التزكية، وإنما يريدون النفع.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

وهنا مسألة واردة، وهي أن بعض الناس يقول: إن إخلاص النية في عصرنا الحاضر صعب، أو قد يكون مستحيلاً، لأن الذين يطلبون العلم يطلبونه لقصد نيل الشهادة، فالجواب على ذلك أن نقول: إذا كنت تطلب العلم لنيل الشهادة، فإن كنت تريد من هذه الشهادة أن ترتقي إلى مرتقًى دنيويا فالنية فاسدة، أما إذا كنت تريد أن ترتقي إلى مرتقى تنفع الناس به، المقصود به العلم الشرعي، أما الأمور الأخرى فلا حرج، لكن الأمور الشرعية، أما العلوم الأخرى الكيمياء ونحوها، فلا حرج في ذلك، لأنك تعرف اليوم في هذا الزمان أنه لا يمكن الإنسان من ارتقاء المناصب العالية النافعة للأمة، إلا إذا كان معه شهادة، فإذا قصدت بهذه الشهادة أن تنال ما تنفع به الناس، فهذه نية طيبة لا تنافي الإخلاص، ولهذا لو وجد عالم جيد يعني متمكن في العلم في شتى فنون العلم، لكن ليس معه شهادة، فإنه لا يمكن من تدريس الثانوي أو أقل أو أكثر، وهذا هو الواقع، مع أن الأقل منه يعني أقل منه علما بكثير، يقبل في الجامعة ما دام يحمل شهادة، فالإنسان حسب نيته، والامتيازات التي تأتي من جراء هذه الشهادة كلها لا تضر وتدخل في قوله ﷺ: «ما جاءك من هذا المال، وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك».

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

٢- الخصلة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة: محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ وتحقيقها بتمحض المتابعة، وقفو الأثر للمعصوم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

وبالجملة، فهذا أصل هذه الحلية، ويقعان منها موقع التاج من الحلة.

يا أيها الطلاب، أنتم هؤلاء تربعتم للدرس وتعلقتم بأنفس علم، فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى في السر والعلن، فهي العدة، وهي مهبط الفضائل، ومتنزل المحامد، وهي مبعث القوة، ومعراج السمو، والرابط الوثيق على القلوب على الفتن، فلا تفرطوا.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله:

الخصلة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، قال: محبة الله ومحبة رسوله، وتحقيقها، بتمحض المتابعة، أي المتابعة التامة، تمحض المتابعة، يعني المتابعة التامة، وقفو الأثر للمعصوم، أي يتبع النبي ﷺ في كل شيء، يعني في الطعام، في الشراب، في اللباس، في كل أحواله.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويأتينا غداً إن شاء الله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.